

التاريخ في سير أبطاله

ابراهيم لنكولن

هجرة الاصحاح الى عالم التربية

للأستاذ محمود الخفيف

— ٣ —

يا شباب الوادي ! خذوا معاني العظمة في
نقها الأعلى من سيرة هذا العاصي العظيم

ما كانت الفاقة لتموق ابن الأحراج عما كانت تتوق نفسه إليه . وهيات أن تركز النفس الكبيرة إلى دعة أو ترضى بمسكنة . ها هو ذا فتى الغابة يهدف للثامنة عشرة ، لا يذكر أنه منذ قوى على حمل الفأس كان كلالاً على أحد . بنى نفسه كأحسن ما تبنى النفوس ، غذاه جسده من قوة ساعده ، وغذاء روحه من توقد ذهنه ودأبه وجلده وبمدهمته .

كان ابراهيم عصامياً في أوسع وأدق معنى لتلك الكلمة ؛ عال نفسه وربى نفسه وعلم نفسه . وكان على استغناؤه عن الناس يخفض جناحه للبعدهم والأقربين . والله ما أجل تلك النفس في تواضعها ودمايتها ، وما أجل ذلك التواضع من فتى لا يرى لامرئ عليه يدا ؛ وهو لولا كرم عنصره وتقاء جوهره جدير أن يدل

بذلك وأن يزهي ؛ وما الإنسان ؟ أوليس هو يظن أن رآه استغنى ؟ استغنى ابراهيم بجده وقناعته في مطالب معيشته عن الناس ، ولكنه أحسن معاشرته الناس وأنسوا منه لين الجانب وعذوية الروح وهدوء الطبع وشدة الحياء . على أن ما زادهم محبة له وإقبالاً عليه حلوة حديثه وحصافة رأيه وأصالته ، وكان قد أحب منذ أن أعجب بذلك المحامي المدلل أن يتحدث إلى الناس ما وافته فرصة إلى ذلك ، وهو بطبعه بازع السياق قوى الحججة تتنازل كلاته — وإن لم يقصد — بقرب المآخذ وبمد المرعي ، وهي صفة سيدرك فائدتها في مستقبل أيامه

سأت إلى الأقدار وهو في التاسعة عشرة عملاً خرج به من الغابة أياماً إلى دنيا الحضارة ؛ فقد استأجره أحد ذوى الثراء في تلك الجهة ليذهب يبيضاة في قارب إلى مدينة نيواورليانز ؛ وقبل الفتى وإن قلبه ليخفق ، وإن نفسه لتتنازعها عوامل الخوف والأمل والرضاء وحب الاستطلاع . وما له لا يخاف وهو لم يقيم بمثل تلك الرحلة الطويلة من قبل ، ولا عهد له بالمدن وعيشتها وأهلها ؟ ولكنه قبل وتأهب . وما كان حب المال هو الذي حفزه إلى القبول ولكنها كانت رغبته الشديدة في رؤية الدنيا ؛ وهو يومئذ تواق إلى المعرفة ، لهج برؤية الحياة في بيئة غير الغابة

وخرج معه فتى من أهل الجهة ليعاونه ، وأخذنا سبيلهما في نهر الأهايو ومنه إلى ذلك النهر العظيم : نهر المسيسيبي ، حتى إذا أتيا مدينة نيواورليانز بمد أن قطعاً ألفاً وثمانمائة ميل ، رأيا خلالها على الضفاف حيوانات وأشجاراً وأناساً غير ما ألفا في إقليمهما . وكما كانا متعجبين بما رأيا وما سمعا ممن أوبا إليهم من سكان البلدان التي نزلا عندها ليالى رحلتهم . ولن ينسى الفتى ما رأى من بطولة أيب حين هاجهما ذات ليلة وهما في نومها سبعة من الزوج ، فقد رآه يمدد — وقد أفاق على همسهم — إلى مجراف فيحاربهم في بسالة حتى يضطرم إلى الفرار وهم منه خائفون

دخل ابراهيم وصاحبه مدينة نيواورليانز ، ولك أن تتصور مبلغ ما بعثته تلك الزيارة من أثر في نفسه ، وقد جاء وهو يافع من الغابة قرأى مدينة كبيرة لأول مرة ؛ أية مدينة هي ؟ لقد رآها نموج بأعماط من الناس وأخلاق من العبيد . ما هؤلاء السادة الذين تقدموا وتروح بهم المركبات الفخمة ؟ وما هؤلاء النسوة اللاتي يخطرن في دلال ويبرزن في عطف الثراء والنعمة ؟

ما هؤلاء وما هؤلاء ممن يرى أمام ناظره ... ؟ وما هذه الدنيا التي يضطربون فيها وما حياتهم وما مبلغ بعدها من حياة الغاية ... ؟ ثم ما هؤلاء المبيد ... ؟ أجل ما هؤلاء المبيد وما حظهم من تلك الحياة الفوارة بالقوة والجاه ؟ أهؤلاء هم الذين قرأ عنهم وسمع من أخبارهم ما لم يفهم على وجه اليقين ؟ نعم هؤلاء هم المبيد ... وهو محررهم ومخطم أغلالهم في غدا

عاد إبراهيم بمد أن أدى مهمته على خير وجه ، وقد قضى في رحلته هذه ثلاثة أشهر بعيداً عن أديانا ، ولكن ما تركته تلك الأشهر الثلاثة في نفسه من الأثر يجعلها كما لو كانت ثلاث سنين ، فقد أحست نفسه الفرق بين المدنية والهمجية إحساساً قوياً . إنه يتساءل بينه وبين نفسه : أي الحياتين أقرب إلى المدنية حقاً ؟ عاد إلى موطنه ، ولكن أي موطن وهو ابن الأحرار ربيب الترحال والأسفار ؟ لقد شد أبوه الرحال من جديد على رأس الأسرة إلى مقاطعة جديدة هي الينويس ، تحفزه نفس الدوافع التي حركته من كنتوكي إلى أديانا ؛ وكان إبراهيم هذه المرة عضد أبيه ، فهو يومئذ في الحادية والعشرين . ولما حطوا راحلهم بمد أسبوعين قام كوخهم الجديد على ما شقت يده الفتية من أشجار . لقد صغرت أمام قوته ومهارته قوة أبيه ومهارته ، وسرعان ما أصبح أيب حديث الجيران في البقعة الجديدة

عمد إلى الزراعة فخرت قطعة من الأرض وبذر فيها القمح وسورها بسور من قطع الخشب سوتها فأسه ، وكان يماونه في ذلك فتى من ذوى قرياه ؛ وترك أيب القمح ينمو وتناول فأسه وراح يعمل في الغابة أجيلاً وقد ذاع صيته وتقدمه أيتا سار ، وهو يحس اليوم أن دخله من فأسه يزيد هنا عما كان يحصل عليه في أديانا . ولكن أي دخل هذا إذا هو قيس إلى ما عسى أن يكسبه رجل غيره في بيئة أخرى ؟ . لقد استأجره أحد الأثرياء ليقطع له خشباً يسور به مزارعته ، فرضى أيب أن يقدم لذلك الرجل أربعاً قطعة من الخشب نظير كل « ياردة » من القماش الساذج الذي طلبه أيب ليتخذ منه سروالاً

وتجلت للناس فتوته وشهامته في عدة مواقف ، فهو لا يفتأ يمد يده إلى البائس والمهوف في كرم وإخلاص ، وهو لا يني يضرب بفأسه في نشاط وإقبال ، ولقد نمحاه ذات يوم رجل ذو قوة وبأس أن يصارعه ، فنازله على كره منه ، إذ كان ينفر من القسوة

والعنف ، وما لبث أن غلبه على أعين الناس فزادوا له إكباراً وما انصرف إبراهيم يوماً عن المطالعة على الرغم من شواغله ، فأوقات فراغه للقراءة لا تفرها مما يقضى فيه الفراغ من ملاذ الحياة ومباهجها . وأى شيء هو أحب إليه من القراءة والدراسة ؟ يا عجيباً ! هل كان يدري أن القدر يمد له لأمر خطير سوف يتقل به تاريخ بلاده من صفحة إلى صفحة ؟ كانت قراءته يومئذ في القانون ، فقد ألقت المصادفات في يده كتاباً يدور البحث فيه على قوانين المقاطعة الجديدة . على أنه قد قرأ قبل ذلك كتاباً غير هذا في القانون ، فهو جد مشغوف بالحماة والخطابة ، وكأنه كان يهيب نفسه لهذه المهنة التي هام بها وجدانه ، وهو بفطرته ميال إلى محادثة الناس كما سلف أن ذكرت ، وإنه اليوم ليخطبهم كلما دعا إلى ذلك داع

وشاءت الأقدار أن يذهب في رحلة أخرى مع رفيقين إلى نيواورليانز ؛ فقد اختاره أحد التجار ليقوم على تصريف بضاعته وجعل له ولزميليه أجرأ في نظير ذلك . ولقد صادف في تلك الرحلة حادثاً آخر : ذلك أن القارب اصطدم بحاجز صخري عند بلدة نيو سالم فتعلق وأنحدر وأوشكت حمولته أن تهوى إلى الماء لولا ما كان من مهارة أيب وقوة ساعديه ، تلك المهارة التي أعجب بها نفر من أهل تلك البلدة وقد تجمعوا يشهدون الحادث

ولما فرغ إبراهيم من أمر تلك البضاعة ولى وجهه تجاه أسواق الرقيق يدرس حالها من كتب وهو لم ينس يوماً ما تركه حال المبيد من أثر في نفسه منذ زيارته الأولى . ألا إنه ليهتم لهذا الأمر أكبر اهتمام ويقبله في خاطره على كافة وجوهه ، كل ذلك في عمق وتمحيص فتلك خلة من أبرز خلاله ؛ فهل كان يعلم ابن الغابة أنه سيؤدى للعالم من عنده رسالة جديدة ويخطو بالإنسانية خطوات واسعة نحو النور بتحريره هؤلاء المبيد وفك أسفادهم ؟ كلا ! ما كان يدور بخلفه يومئذ شيء من هذا

رأى وبالقول ما رأى ! رأى في تلك الأسواق جماعات من السود ذكوراً وإناثاً جيء بهم قسراً من مواطنهم مقرنين في الأسفاد يباعون كما تباع الماشية ، يلهب التجار جلودهم بالسياط ويسوقونهم كما تساق الأنعام كأنهم لا يمتنون إلى البشرية بصلة . وما كانت نفسه الكبيرة ، وما كان قلبه الرحيم لئير بتلك المناظر كما يمر غيره من الناس ، كلا بل سبقي مسألة المبيد في أعماق نفسه حتى تحين الفرصة

باسم أبيب الأمين ، وصارت تلك الصفة منذ ذلك اليوم أشهر صفاته وأحبها إليه وإلى الناس . حدث أنه أعطى لامرأة ذات مرّة على جهل منه مقداراً من الشاي أقل من حقّها ، فلما أدرك ذلك سار إليها آخر النهار مسافة طويلة يحمل إليها باقي الشاي ؛ وحدث أنه أخذ خطأ بمض دريهمات من رجل فلما عد ماله آخر النهار سأل عنه حتى اهتدى إليه ودفع له دريهمات . وكان الناس يعلمون هذا وغيره فيقبلون عليه معجبين . ولم ينس في تلك البلدة ما حبلت عليه نفسه من النجدة والروءة والحذب على الضعفاء . ونعى أمره في ذلك إلى جماعة من الفتيان في البلدة كانوا يعملون العريضة هويتهم والشغب مسلاتهم ؛ وكان على رأسهم فتى مقتول الساعدين شديد المراس يقال له أرمستريج . فجاءوا عصابة إلى ابراهام يسخرون منه ويتحدونه أن ينازل زعيمهم ، وهو يمرض عنهم وتأتي عليه نفسه أن يحفل بهم ؛ ولكنهم يسرفون في التحدى والقحة ، حتى يخرج إليهم ويسير إلى قائدهم ويشدد الصراع بين الفتيان ويستجمع ابن الثابة قوته ويدفع خصمه فإذا هو ملق على وجهه متدحرج كأنه كتلة من الخشب ؛ والفتية لا يصدقون أعينهم من الدهش . ولقد نهض صاحبهم فصاحه وسلم له بالفتية . وشاعت في الناس بطولة فتى الخانوت وشدة بأسه . وما كان ابراهام غليظاً أوجع شر ، بل لقد كان يسمي أبدأ في القضاء على الإحن والنازعات ، وكم له من يد في هذا الضمار

عرف الناس ابراهام فوق ذلك باستقامته فاعهد عليه من سوء قط ؛ كان لا يقرب الخمر ولا الميسر ولا يعرف الفواحش مظهر منها وما بطن . وأين ذلك الرجس من تلك النفس المصامية الطامحة ؛ إن له من نفسه خير عامم ، وله من الكتب ما يعلّاه فؤاده ؛ وكانت كتبه إلا قليلاً مستمارة ؛ يسمع عن كتاب يطلبه فيجده عند أحد الناس فيسبى إليه ويرجوه أن يعيره إياه حتى يقرأه فيعيده إليه ؛ ومن ذلك أنه سمع وهو في الخانوت عن كتاب في قواعد اللغة الإنجليزية ، وكان قوى الرغبة في تعرف قواعد اللغة ليستعين بها على ضبط عبارته ، فبشى نحو ستة أميال حتى جاء صاحب الكتاب فأعطاه إياه ، فأكب عليه حتى أتقن فهمه . ومما قرأه ايب في تلك الآونة صحيفة كانت تكتب في السياسة ، اشترك فيها وهو مملق ، وكان يقبل على قراءتها في لثة واستمتاع قراءة تعمق ودراسة

أخذت عيناه فيما رأى فتاة جميلة المحيا مرهفة القوام يمرضها الباعة على النظار وهي نصف عارية كما يمرضون فرساً كريمة ، وقد افتتن بقسماتها وقوامها الشاهدون ؛ و ابراهام تتحرك نفسه من أعماقها ويتألم ما وسه الألم . وصفه أحد زميليه فقال : « رأى لسكون ذلك وإن قلبه ليدبى . لم تتحرك شفتاه وظل صامتاً ، ومشت في وجهه كدرة الهم ؛ وأستطيع أن أقول وأنا به عليم ، أنه في تلك الرحلة قد كون لنفسه رأيه في مسألة العبيد »

ومما بروى عنه في تلك الرحلة أن عرافة لقيته فقالت وهو يمازحها : « يافتي سوف تكون رئيساً للولايات وبومئذ سيتجرر جميع العبيد » وما كانت كلمات العرافة إلا كلمات القدر تجري على لسانها في نبوءة عجيبة !

وقتل ابراهام راجعاً إلى الغاية وقد ازدادت تجاربه ومعرفته بالحياة والناس وهو في سن الدراسة والتطلع إلى معرفة النفس البشرية وما تنطوى عليه من معاني الخير والشر . ولقد سلمت نفسه من شرور المدينة ، فلم تعلق بها أوشاب ؛ وهل كان لنفس مثل نفسه محمستها الشدة وعصمتها الحياة المحصورة في الثابة ، أن تزل أو ترقى إليها غواية ؟

لم يقم ابراهام طويلاً في كوخ أبيه ؛ فما لبث أن خرج في طلب العيش . وقد أدرك أنه يمد أن تجاوز الحادية والعشرين يستطيع أن يغادر أباه ليقوم على شؤونه بنفسه . خرج من الكوخ إلى غير عودة إليه ؛ فترى به النوى مطارحها كلها تصرمت الأيام ، وكان أول عمل قام به أن فتح له ذلك الرجل الذي استأجره في رحلته الثانية إلى أورليانز — حانوتاً في نيوسالم وأقامه فيه ليبيع ثابتاً عنه وذلك لما خبر من مهارته وأمانته . ولقد قطع أيب المسافة إلى نيوسالم على قدميه ؛ وأخذ يبيع في الخانوت في خفة ولباقة كأنه مارس التجارة من قبل . وأتاح له ذلك العمل فرصة لقاء الناس ، ولقد رأوا من خلاله ما امتلك به قلوبهم ؛ رأوا منه لين الجانب وسعة الصدر وحلاوة اللسان وسرعة اليد وحسن الملاطفة والممازحة ، ورأوا منه فضلاً عن ذلك جميعاً الأمانة كأعظم ما تكون الأمانة . وأتاح له ذلك العمل أيضاً أوقاتاً يقضيها في المطالعة فكان يتمدد على ظهر صندوق ويقرأ حتى يقصده مشتر فيبيعه ما يطلب ثم يعود إلى كتابه ولقد ما أعجب الناس ب ابراهام وخلال ذلك وصار يعرف بينهم

ونشأت في مدارج متواضعة، وليس لدى تراه أو أهل ذوو جاء، أو أصدقاء يقدمونني إليكم؛ وقضيتي مبسوطة بين أيدي الناخبين الأحرار، فإن اخترت فقد أولوني جيلاً كن أوفيه مهما بذلت في خدمتهم، وإن أملت عليهم حكمتهم أن يتركوني حيث أنا فاني قد ألفت من مواقف الأئخذال ما لا أحس معه لذلك غمًا»

تلك هي صراحة لتكولن، وتلك هي بسالته تتجلى في كلماته كما تجلت فيها بساطته وإخلاصه وسمو تواضعه وعزة نفسه وكان صاحب الحانوت قد أدى بمسلكه الموعج إلى بيع حانوته إلى تاجر آخر، وترك إبراهيم أول الأمر بلا عمل، ولم يكن لديه مال يستعين به حتى على القوت، اللهم إلا ما تسوقه الأقدار إليه من وجوه الرزق. ومنها أنه قاد زورقًا بخاريًا ليخرجه من منطقة عسيرة في مجرى الماء، وكان أجره على ذلك أربعين دولاراً وسأقت إليه الأقدار بعد ذلك عملاً غريباً بالنسبة إليه؛ ذلك هو التطوع مع فرقة من شبان الجهة لمحاربة الهنود الحمر، وكان كبيرهم — ويعرف باسم الصقر الأسود — قد هاجم البيض يريد أن يسترد أرضاً كان باعها للحكومة؛ وما كان أيب يعيل إلى الحرب ولكنه تطوع إذ لم يجد لديه عملاً، ولعل تطوعه هذا وما عساه أن يديه في الحرب يشفع له في الانتخاب ويزيد صيته رفعة... وعلى ذلك خرج مع التطوعين على رأس فرقة

ولكن الحرب لم تدم طويلاً، ولا هي استدعت مقاومة عنيفة. وما عرف عنه أنه مس إنساناً بأذى وهو في الميدان، بل لقد تجلت صروته في حادث تزويه لدلالته على نفس أيب وخلقه: أوى إلى معسكر التطوعين أحد رجال الصقر الأسود وفي يده بطاقة أمان من أحد القواد؛ ولكن بعض التطوعين وكانوا محققين هموا به ليقتلوه فوق بينهم وبينه إبراهيم، وبنادقهم مصوبة إلى صدره وهو يصرخ فيهم «إنكم لن تقتلوا هذا الرجل»

ولم يكن بعيداً أن تنطلق إليه الرصاصات في ثورة غضب كتلك الثورة ولكن الله سلم ونجا الرجل ونجا مخلصه؛ وبعد أن رجع أيب إلى نيو سالم جرت الانتخابات ولكنه خذل فيها، إذ لم يكن الحزب السياسي الذي يدين بعبادته محبوباً يومئذ للناس اخذل إبراهيم ولكن طابت نفسه الأمر وارتاحت، ذلك أنه وجد أن أكثر أصوات بلدة نيو سالم كانت له

الضيف

« يتبع »

سأقه إلى السياسة رجل رأى من فطنته وطلاقة لسانه وصدق إخلاصه ونظمه إلى المعرفة ما أيقن معه أن سوف يكون له شأن غير شأنه إذ ذاك. وكان إبراهيم يحدث الناس كما ذكرنا كلما سمحت بذلك فرصة، وقد ألقوه جذاب الحديث بارع السياق يضرب الأمثال في غير توقف ويسوق الأدلة في غير عوج؛ وإنك أتري من ذلك أنه يستطيع أن يخوض السياسة، فإذا اعترم؟ عقد النية على أن يتقدم للناس ليختاروه نائباً عنهم في مجلس مقاطعة النيوسا وكان في تواضعه يرى الخطوة جريئة. على أنه كان يدرك أن اليد قصيرة والجيب خال والجاه منعدم. فعلام يموت ابن الثابتة وإلى من يستند؟ ليس أمامه غير نفسه؛ ولكن حسبته تلك النفس

وكان أيب في الثالثة والمشرين من عمره وإنه ليحقق لنا أن تتساءل كيف خلت حياته إلى ذلك اليوم من الحب على قوة وروحه ونبل عواطفه وشدته بنيته؟ الحق أنه كان ينفر من النساء ومخالظهن، وكان شديد الخجل خافض الطرف متلجلج اللسان متبلبل الخاطر كلما وجد نفسه على رغمه في مجلس يضم فتاة أو فتيات. وكان هذا الحياء الشديد مما عرف من صفاته؛ بيد أنه يحس اليوم كأن شيئاً يختلج بين جنبيه، فلقد زار ذات ليلة ذلك الرجل الذي وجهه إلى السياسة في خانه، وكان صاحب ذلك الخان؛ ورأى هناك ابنته، وكانت حسناء في الثامنة عشرة، قال إليها قلبه ولكنه ما لبث أن علم أنها خطيبة فتى غيره؟ وهل كان مثله أن يطمع في تلك الفتاة على ما هو فيه من خصاصة وعلى ما كان ينعم به أبوها من تراه؟

وهو في شغل اليوم بالسياسة؛ ذهب إلى الخان حيث يجتمع فتية الحى ورجاله، وبعد أن استمع إلى حديثهم برهة ونب إلى مراتي وقام فيهم خطيباً؛ ولما كانت أولى خطبه إذا أردنا معنى الكلمة. راح يتحدثهم عن رغبته في الإصلاح وعن أفكاره في السياسة؛ ولما كان يجهل السياسة العليا فقد قصر حديثه على إصلاح الطرق والأنهار وهو جد خبير بها. ومما قاله «إن سياسي قصيرة حلوة كرقصة المعجوز، إنى أحبده. شروع المصرف الأهلى وأحبذ الإصلاح الداخلى والحماية الجركية. هذه هي ميولى ومبادئ السياسية، فإن اخترتوني فأنا شاكر وإلا فلن يغير ذلك شيئاً من نفسى» وقال في نداء مطبوع أذاعه في الناس «ولدت